مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
Eissn :2602-5264 Issn : 2353-0499
المجلد 10/ العدد: 3 (2022)، ص: 297-315

التجربة الصوفية البرغسونية: نحو الخلاص من مآزق الآلية

The Bergsonian mysticism experiment: towards deliverance from mechanism troubles.

يحي قلي[1]

[1] المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة – الجزائر–yakolli19@gmail.Com

تاريخ الاستلام: 2022/07/27 تاريخ القبول: 2022/08/22 تاريخ النشر: 2022/10/08

ملخص:ارتبطت مذاهب الميكانيكية والغائية بفلسفة الحداثة وما طرحته من مقولات جديدة كشفت عن التفسيرات والتصورات للواقع المعاش؛ تفسيرات ذات خلفية علمية تنم عن آفاق التطور العلمي التقني السائد... إن تطور الحياة من الجانب العلمي وتعاظم الاستناد على الآلة وانشغال الإنسان الحداثي بالماديات الماكرة صير الذات الإنسانية تعيش في اغتراب روحي تبلورت معالمه في تضييعه للقيم الأخلاقية والروحية، وبالتالي تضييعا لجوهر كيانه وقيمة معنى وجوده...إن الفلسفة الصوفية البرغسونية ناقشت هذه الإشكالات التي عانتها الإنسانية من خلال عرض فلسفة روحية قائمة على تجربة صوفية حقة، وذلك بالعودة إلى الذات الإنسانية واستبصار حقيقتها وفتح آفاق المحبة الصوفية؛ التي هي في الأساس علاقة الله بالإنسان وإن بلغ هذه المرتبة من السمو الروحي تيسرت له سبل الاندماج في الإنسانية الكاملة، التي تتخذ البساطة في المعيشة غرضا ومطلبا لذاته.

كلمات مفتاحية: الدين – الإنسانية- الصوفية – الآلية- الصوفي– الحب الصوفي– نداء البطل- الخلق- الفرح- برغسون.

Abstract: The mechanism and finalism were linked to philosophy of modernity and the new categories it presented that revealed interpretations and perceptions of reality. Explanations

with a scientific background that reflect the prospects for the dominant scientific and technical evolution…The evolution of life from the scientific side and the increasing reliance on the machine and the preoccupation of the modernist man with cunning materiality have made the human self-live in spiritual alienation whose features have crystallized in its loss of moral and spiritual values, and thereby wasting it to the substance of its entity and the value of the meaning of its existence…

The Bergsonian mysticism philosophy discussed these problems suffered by humanity by presenting a spiritual philosophy based on a true mysticism experience by returning to the human self and revealing its truth and opening the horizons of mystic's love; which is basically god's relationship with the human being, and if he reaches this rank of spiritual highness, it will be easy for him to integrate into the whole humanity, which takes simplicity in living as a purpose and a demand for itself.

Keywords: religion – humanity – mysticism – mechanism – mystic - mystic's love – The call of hero – creation – joy – Bergson.

المؤلف المرسل: يحي قلي

1. مقدمة

تعد الفلسفات الوضعية والمادية التي برزت في القرن التاسع عشر صورة انعكاسية لتطور العلم في بمناهجه ونتائجه؛ وقد استحضرت نتيجة لهذا جملة من المفاهيم الجديدة ذات الطابع العلمي مثل الحتمية، الآلية، السببية، الوضعية المنطقية ونحوها، تعبر عن النزعة المادية والآلية التي أنتجتها العقول آنذاك... وقد أدى الإقبال المتزايد على الماديات أن تعاضد العلم مع التقنية، فاتسع بذلك اعتماد الإنسان المعاصر على الآلة حتى صارت جزءا من حياته بل غدت عضوا اصطناعيا يكمل بها أعضاءه الطبيعية... إن الهوس بالأداتية خلق

فجوة واسعة في حياة الإنسان بعدما أثقلته أعباء هذه الأداتية أفضت إلى تقهقر أبعاده القيمية الروحية لأنه أصبح مقيدا بأغلال الآليات. إن اغتراب الإنسان روحيا وتغافله عن إنسانيته هو ما حرك برغسون أن يؤسس لمشروعه الفلسفي يتضمن منظومة مفاهيمية بأبعاد ميتافيزيقية، فكانت ديمومته تجسد استمرارية الحياة الشعورية النفسية وآفاق حريتها في الهروب من سجن الممارسات الآلية السحيقة، وسيسند منهجه الحدسي المتماشي مع دراسة الظاهريات الإنسانية المتفردة بطبعها كعوض للمنهج العلمي، وسيرتكز في تفعيله للقيم الأخلاقية والروحية على التجربة الصوفية الحقة كحل للشرخ الكبير الذي أصاب الإنسانية جمعاء نتيجة فرطها في استخدام الآلة الجوفاء، فطرح الأخلاق المفتوحة والجذب الصوفي لتوجيه هذه الآلية توجيها منظما في ثنائية تجمع بين الصوفية والآلية معا كنموذج مثالي للحياة الإنسانية المثالية يقودنا إليها الصوفي الحق.

وبناء على ذلك نطرح التساؤلات الآتية: ما حقيقة التجربة الصوفية الروحية البرغسونية؟ وما معنى أن يكون الصوفي الحق مخلصا للإنسانية وأن يقودها إلى السعادة الروحية؟

أيمكن أن يكون المشروع الصوفي البرغسوني حلاّ لكل مشاكل الإنسانية في إعادة بعث روح القيم فيها كرد فعل صريح في تجاوز التبعية المادية والهوس التقني؟

2. معنى التصوف البرغسوني: في مؤلفه "منبعا الأخلاق والدين" يشير برغسون أن للدين معنيين : الدين الساكن والدين المتحرك يتباينان من حيث المنبع والوظيفة؛ فإن كان الدين الساكن يستمد مبدأه من الغريزة وتتمثل وظيفته في التشبث بالمجتمع والانصياع لوحدته من خلال طقوس وشعائر وعبادات جماعية، فإن الدين الحركي مصدره الحدس الصوفي بعدما يركن مسار التطور في جهد خلاق ليتذوق طعم التجربة الصوفية الفريدة ومادام منبعه رقراق فوظيفته أيضا سامية ترنو إلى الاتصال بالله.(حنفي، 2008، ص328-329)

إن ميل برغسون للدين الديناميكي مرده أن الشخص يهب نفسه للمجتمع ليس المجتمع الضيق بل المجتمع المترامي الحدود إنه الإنسانية بأجمعها، يذوب حبه فيها ليرتقي لنوع من الاطمئنان ليس كالذي يجلبه له الدين الساكن المقترن بالمكاسب المادية إنه اطمئنان من نمط مغاير تتزكى فيه الروح و تسمو متجردة من التخوف والقلق على الذات من المستقبل. (برجسون، 1971، ص227)

يؤكد برغسون أن بلوغ مرتبة السمو بالنفس الإنسانية سبيله الوحيد سلوك طريق التصوف الحق والذي يندر بلوغه. وفي هذا السياق نتساءل عن معنى التصوف بصفة عامة والتصوف البرغسوني تحديدا.

إن التصوف حالة نفسية يشعر الشخص فيها أنه في اتصال مباشر؛ مع الله فهو اعتقاد يتأسس على الشعور والخيال أكثر من ارتكازه على العقل والخبرة الحساسة. (Cuvillier, 1967, p.122)

وتبني تجربة التصوف على خبرة الوجد وانتشاء الروح وتعلقها بل اتحادها مع الوجود المطلق والذوبان في ملكوته فهذا الضرب يسمى بالتصوف الحقيقي والمفيد – في المقابل- ضرب من التصوف يسمى بالسالب

" الذي لا يتشوف إلى المطلق ولا اتصال فيه مع أية قوة غيبية، ولا حضور، ولا وجد يعنيه، بل يقوم على تجربة الغياب والفقد، وعلى معانقة المستحيل في ليل مدلهم لا إشراق فيه، وفي تطواف مستديم، لا حلول فيه، وانقطاع لا اتصال فيه وهو في الأخير تجربة إستتيقية أكثر منها تجربة ميتافيزيقية." (سبيلا، الهرموزي، 2017، ص136)

أما بالنسبة لمفهوم التصوف لدى برغسون فقد ربطه بالوثبة الحية؛ أي التوثب عند كل ما هو مادي معرقل الذي من شأنه أن يكبل الإنسان من أن يعانق ملكوت الروحانيات السمحة. ولا أحد بالغ هذه الدرجة الرفيعة إلا من

سلك طريق الصوفية الحقة، فيغدو في حقيقة الأمر فوق الإنسان، نادر، لأنه نابع من جوهر ذاته. (برجسون، 1971، ص229).

فغاية التصوف -من منظور برغسون- هو اتصال بالجهد المبدع الخلاق، وما هذا الجهد إلا شيئا من الله ففي الصوفية يتمرس الشخص كيفية الانسلاخ عن الحواجز المادية التي رسمها المجتمع وهو في هذا يكمل فعل الله وتتحد إرادته بإرادة الله فيرسو إلى حالة الوجد التي تشعر فيها نفسه أنها ماثلة في حضرة الله يتنور بنوره. (برجسون، 1971، ص237)

مما لاشك فيه أن الصوفية الحقيقية في نظر برغسون تحققت في كيان الصوفية المسيحية مع كبار متصوفيها. أما غير ذلك فهي صوفيات ناقصة على غرار ما كان مع اليونان أو الهند القديمة أو غيرها من الصوفية التي ظهرت في الحقب التاريخية، لأنها صوفيات اعترضتها ظروف مادية كالصوفية الهندية أو نزعات عقلية ضيقة كالصوفية اليونانية. (برجسون، 1971، ص243) بيد أن برغسون لا يحشر الصوفية اليهودية ضمن الصوفية القديمة الناقصة لأنها طالما عنيت بحظوة في كتاباته، وقد اعتبر المسيح متمما أنبياء بنو إسرائيل. لكن عيب التصوف اليهودي أنه تصوف قومي في جوهره أفنى حبه لشعبه على وجه الخصوص. كما أن اليهوديين ومنهم المتصوفة لم يسد بينهم الود والهمم، وهو السبب الذي يجعل من صوفيتهم لا تنغمس في رحاب الإنسانية، فاصطبغت صوفيتهم بالقسوة. لكنها رغم ذلك –حسب برغسون- استحقت الاقتراب من الصوفية المسيحية الكاملة بل هذه الأخيرة ما هي إلا تكملة للصوفية اليهودية التي غفلت عن النزعة والمحبة الإنسانيتين والتي لطالما رجتهما المسيحية وخلفت اليهودية لتبلغ التصوف الفعال الذي يذيب المسافة بين الفكر والعمل. (برجسون، 1971، ص256-257)

ما يميز الصوفية الكبرى (المسيحية) أنها تسعى لتهيئة المتصوف لبلوغ الطور النهائي المتمثل في الاتحاد التام والنهائي بالله تمر فيه النفس الصوفية بأشق الانسلاخات والتطهيرات من كل دنس كيما تغدو أداة صالحة في يد الله، فيتجلى الله لها كرؤى خاطفة أو كتلميحات رمزية وهذه التمثلات المقدسة هي ما توصل إلى الإتحاد العميق بين المحب والمحبوب. وهنا فإن الله هو من يعمل بها وفيها ولن تُدرك هذه المنزلة إلا بالمكابدة والثبات. (كريسون، 1977، ص143)

في رأي برغسون، جوهر التصوف يكمن في العمل (action)، وتقاس قيمة التصوف بحسب معاملة الشخص للآخرين، لهذا السبب فإن كبار المتصوفة- حسب برغسون- مصلحون عظماء وفي مقدمتهم يسوع المسيح، فرانسوا الأسيزي (François d'Assise)، تريزا أفيلا(Thérèse d' Avila)، جاك دارك (Jeanne d'Arc) وغيرهم. (Feneuil, 2012, p9). بالرغم من ذلك فكل هؤلاء المتصوفة العظماء لم يكونوا في الحقيقة سوى مقلدين لما كان عليه يسوع المسيح غير مكتملين، وهم وإن كانوا مندرجين ضمن تيار التصوف الكامل إلا أنهم لم يلامسوا الدلالة العميقة له؛ لذلك فإن المسيح وحده الممكن وصفه " بالصوفي الكامل" فصعوبات الإقتداء به لا حصر لها. (Feneuil, 2011, p153)

3. مسألة الحب الصوفي أو في علاقة الله بالإنسان: تتميز فلسفة برغسون بالطابع الروحي خاصة عند حديثه عن الله باعتباره المطلق الحاضر والمتجلي فينا، فتتجاوز بذلك فلسفته الأطر النفسية والوجودية وتتسم بالسمة الروحية، وخير دليل على ذلك أنه ناقش في تجربته الصوفية مشكلة الحب والتي هي في الأساس سوى علاقة الله بالمتصوف. (وهبة، 1978، ص98)

فكيف يفسر برغسون هذه العلاقة (الحب الصوفي)؟

يجيبنا برغسون " إن الله حب وهو موضوع حب: هذا ما تأتي به الصوفية ولن يفرغ الصوفي من الحديث عن هذا الحب المزدوج. إن وصفه لن ينتهي، لأن

الشيء الذي يصفه شيء يفوق الوصف، ولكن الأمر الذي يقوله بوضوح هو أن الحب الإلهي ليس شيئا غير الله، بل هو الله نفسه". (برجسون، 1971، ص268-269)

يتعلق حب المتصوفة تحديدا بالنداء أو ما يطلق عليه برغسون "نداء الصوفيين" ويكسر فيه الحب هنا أطر التجربة الإنسانية، فتأثيره كتأثير أي عاطفة عميقة، وفي البداية تسمى نشوة أي لا يمكن أن نعتبرها "حبا" بعد، ولا يسمى الشخص في هذه الحالة صوفيا بل هو "بطل"؛ فمن الضروري هنا أن نمر بالبطولة حتى نصل إلى الحب وهذه هي طريقة الحب الصوفي، فهي عاطفة عميقة، تُسمع من قبل الأفراد الذي يناديهم من خلالها المتصوف الحقيقي حيث يشعل في نفوسهم روح الحماس. (Feneuil, 2011, p117)

كيف يمكن للإنسان أن يخلق ذاته؟ سؤال شغل ذهن برغسون والحل- حسبه- يكمن في الحب الذي يكون في البداية تحديا ثم يصبح ممكنا أي ينزل من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل؛ إذ بواسطة عاطفة الحب يغير ذاته ويدعو غيره أيضا– بناء- على مقصد المحبة أن يلبوا نداءه كاستمرارية في التغيير. فهذا هو الوصف الذي قدمه برغسون عن الحب الصوفي؛ إنه الدفعة ذاتها التي يسعى توصيلها إلى البشرية جمعاء ويطبعها عليهم بعدما أوثقها وطبعها على الأشخاص المتميزين من قبل فهو جهد إبداعي. (Feneuil, 2011, p119) به تتم إعادة اكتشاف الذات ذاتها من خلال التعايش في أحضان الحب الصوفي، والعمل على إيصال الكلمة إلى الإنسانية لدليل واضح على أن عمل الصوفي جهد إبداعي يطمح من خلاله إلى قلب التوقف الذي اكتنف الإنسانية إلى حركة، كتعبير عن إعادة خلق نفسها من جديد ومن ثمة استمراريتها...لكن برغسون يرى أن الإنسانية ليست قادرة على تشكيل نفسها بشكل نهائي أي ما يسميه هو بـ"اكتمال الإنسانية" دون مساعدة الصوفي الحق. (Feneuil, 2011, p120). ذلك أن

هذا الأخير قد تَمَلَّكَهُ ليس حب الإنسان لله فحسب بل حب الله للناس جميعا. فمن خلال الله وبالله يحب البشرية كلها حبا إلهيا. ولا يقصد برغسون بهذا الحب الأخوة التي يميل إليها الفلاسفة ويبنون صرحها بحجة أن البشر متماثلون في جوهر العقل، ولاهي حتى تقوية لتعاطف فطري كغريزة حب الإنسان وعطفه على أخيه، حيث يفند برغسون هذه النظرية من باب أن وهمهم وغلطهم يبدأ من اعتقادهم أن الفرد تتسع علاقته لتمس العائلة ومنها إلى الوطن، فحبه لبني جنسه مستقى من حبه لعائلته ووطنه؛ أي ظنوا أن الدائرة هنا سائرة للاتساع. لكن يؤكد برغسون أن هذه المحبة مرتكزة على الغرائز ليس إلا، ثم إن العائلة والمجتمع أرادتهما الطبيعة كما أن الغرائز الاجتماعية قد تحمل هذه الجماعات أو الأوطان على التقاتل والتناحر فيما بينها لا أن تتحد وتتعاطف، خاصة وأن منبت هذه العلاقات المجتمعية هو الغريزة ومن الممكن أن تخرج عن حدودها الطبيعية وتأخذها إلى ما لا يحمد عقباه. (برجسون، 1971، ص 250)

خلافا لحب الإنسانية حبا إلهيا أو صوفيا. إن هذا الحب لا هو من الحس ولا هو من العقل، فهو أصل العاطفة وأصل العقل وأصل سائر الأشياء، ذو طبيعة ميتافيزيقية، وهو مقترن بحب الله لخلقه يتغيا أن يكمل-بعون الله- خلق البشر ويقصد هنا من الناحية الأخلاقية والسلوكية والفكرية...يريد أن يحمل الإنسانية إلى مصاف الاكتمال الذي عجز الإنسان العادي رفعها إليه، فأما وإن حملها الأناس المتميزون حينها سترتقي الإنسانية جمعاء وستدفع نحو الحركة الإيجابية بدل التوقف المميت وهم هنا(المتصوفة) يريدون كسر التناقض بجعل الإنسان الذي هو المخلوق إلى جهد خالق. (برجسون، 1971، ص 251)

يشير برغسون أن الحب علاقة مع الله، بل إنها علاقة فريدة، وبدافع الحب خلق الله الإنسان وفي مقابل ذلك على هذا الأخير أن يحبه وهذه العلاقة هي بمثابة دوامة؛ فالصوفي موجود في الله كمحبة والله حاضر في روحية الصوفي،

وبالتالي يجد نفسه في علاقة توحده مع الله وقد سبق وقلنا أن الله حب وهو موضوع حب، بل إن الصوفي لا يدخل في علاقة حب مع الله فحسب وإنما يتعداه إلى علاقة محبة موحدة مع أناس آخرين إن هم سمحوا له أن يثوي داخل أنفسهم؛ لأنه يود من خلال هذا التماهي معهم كسب قلوبهم لتبدأ مسيرته في نشر المحبة على الإنسانية جمعاء. (Feneuil, 2011, p124)

إنهم يشعرون به كدفعة حب، وهو بدوره يجذبهم ويمتصهم في زوبعة الحب من الله الذي هو دائما في نفس الوقت حب الخلق والإبداع، هذا هو السبب في وجود الصوفي أن يجعل البشرية جمعاء صوفية أو على الأقل قادرة على التصوف. ولا أحد ينكر النداء الذي يطلقه هذا المتصوف الحق، فلا جرم أن كل شخص منا يتجاوب مع ذلك النداء لأنه وببساطة يلامس جزءا من أعماق أنفسنا. قد لا نسمع النداء بوضوح لكن الاستجابة قائمة وكلمة مرورها إلى ذواتنا هي عاطفة الحب نفسها؛ العاطفة التي تجعل الصوفي في تناغم مع البشرية جمعاء كتناغمه مع الله، بل حتى مع أمثاله من الصوفيين. (Feneuil, 2011, p125)

و يرى برغسون - أيضا- أن بصمة الصوفي في الحب تظهر في علاقته مع الله أو مع الإنسانية ككل، وعلاقة الحب هذه هي التي أدت في الواقع إلى توحيد الإنسانية بل إنها علة نشأتها وتكونها؛ لأن الإنسان يتماهى مع الحب فتترجم في إقامة علاقة تبادل، بعبارة أخرى تم احتواؤه في محبته لله وفي محبته للإنسانية أيضا. (Feneuil, 2011, p126)

يشير برغسون أن السمو بالإنسانية إلى الله لن يكون إلا بوثبة الحب، وهي التي تعمل على إتمام الخلق الإلهي. لكن ليكن في الحسبان أن ذلك لن يكون بغير عون الله؛ لأن الصوفيين والذين كانوا العلة في هذه الوثبة هم بحد ذاتهم أدوات بين يدي الله وكل جهودهم إن كانت شاقة ومتفردة تصب جميعها في مصب واحد

وتتحد في الله لأن الصوفي يعتقد أن الحب جوهر الله وهو قوة خلاقة. (برجسون، 1971، ص253)

يربط برغسون بين الفرح والخلق، فوجود الخلق مرتكز على وجود الفرح؛ فالأم مثلا يتملكها الفرح تجاه وليدها إذ تشعر بأنها هي من خلقته من الناحية المعنوية والجسدية. كما يميز –أيضا- برغسون بين الفرح واللذة؛ ففي نظره اللذة محصورة في غريزة حفظ الحياة أما الفرح ينبئنا أننا نجحنا في حياتنا وهو رمز السعة والمكسب والظفر؛ فرب المصنع أو التاجر الذي يحقق تطورا مدهشا في مشروعه لا يفرح من أجل الشهرة ولا المال بل فرحه الحقيقي يتمثل في كونه أنه صنع في حياته تغييرا وتطورا من خلال مشروعه الناجح. ومن الفرحات أيضا فرحة الفنان أو العالم الذي أبدع واخترع وغيّر...فرحة يطلب من ورائها المدح والرفعة وإن حصل الاستحسان والإعجاب فما يزيده إلا اطمئنانا وفاعلية في الإنتاج، أما الواثق لَهُوَ صاحب عمل مبدع، فلا يأبه بالمدح لأنه فوق المجد فهو خالق. (Bergson, p29-30) ولأنه كذلك ففرحته إلهية وكما قلنا أن الفرح نجاح في الحياة فهو خلق، ليصير وجود الإنسانية بذلك خلق كبير إن هي قورنت بخلق الفنان أو العالم الذي يعمل على خلق نفسه بنفسه، أما خلق الإنسانية يتم بدافع الحب لا لأمر آخر ولا يقدر عليه إلا الإنسان المبدع. (Bergson, p31)

إن الإنسان الخالق بمقدوره بث أخلاقه الدمثة السمحة إلى نفوس سائر البشر فيقويهم بقوته ويحمسهم بحماسته المتقدة، ولا ريب في هذا لاسيما أن الحقائق الميتافيزيقية تتجلى فيه وتنكشف انكشافا. (Bergson, p32)

في الحقيقة، الحديث عن نظرية الحب الصوفي تضرب بجذورها إلى الفكر القديم خاصة في العهد اليهودي المسيحي الذي عرف عنه أنه تطرق للحديث عن حب الله للإنسان وحب هذا الأخير لله أو لبني جنسه. وليكن في الحسبان أن حب الله للإنسان كان أكبر شغلهم ولعل أبرز من تكلم عن نظرية الحب الإلهي القديس

أوغسطين حتى جعله برغسون مرجعه الأول في الحب الإلهي، إذ يرى أوغسطين أن أساس حب الله هو معرفته فلكي أحب الله علي أولا معرفته. وحب الله عند برغسون هو مدار فلسفته اللاهوتية، وهو ليس تنظيرا إنما هو تجربة معاشة، بل إن كنه الإنسان يتجلى في حبه لله وهو ما تلخصه لنا عبارته الشهيرة "أحب ثم افعل ما تشاء". والحب لله ينبغي أن يكون نقيا؛ أي محبة الله لذاته وأن محبة العالم وكل ما فيه إن كان لا يرجع إلى حب الله فهو حب ناقص أو ما يسميه بالحب الجسدي، فمحبة أي شيء كان لابد من محبتها بالنسبة إلى الله. (البحري، 2016، ص373، 375)

4. الثنائية المتطاحنة: بين الآلية والصوفية: لقد عُرف القرن التاسع عشر بالتعصب المادي وتصاعد التفسير الآلي، فانبجست من هذا المسلك فلسفات وضعية ومنطقية تعبر عن القلق الوجودي المادي الذي اكتنف الإنسان، فأصبح جزءا من الماديات تابعا لها. ومن مظاهر السيطرة المادية أن تعاضد العلم مع التكنولوجيا ظهرت معالم هذا التعاضد الإفراطَ في الجنوح إلى الآلة وتوظيفها في نوايا سياسية واقتصادية براغماتية (الحرب مثلا). لكن التعاطي في استعمال الآلة ونشدان التفسير العلمي البحت خلق هوة سحيقة بين الروحية والعلم، فتهاوت القيم الإنسانية أمام جبروت المادية العمياء وتجرد العلم من الأخلاقيات فبات الإنسان عبدا تحركه غرائزه المادية التي تجد لها إشباع في فرطه باستعمال الآلة، من هنا نوى المشروع الفلسفي البرغسوني إلى زعزعة أطر الفلسفات المادية والوضعية بطرح البديل المتجلي في العودة إلى الذات الإنسانية والإبحار في عالم القيم الروحية كمحاولة جادة لإصلاح ذات البين بين الآلية والصوفية، وهو المطلب الذي ينبغي أن يؤشر له القرن العشرون من خلال الاهتمام بمبحث الأخلاق لتجاوز آفة الماديات التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر. (بوحناش، 2013، ص171- 172)

يرى برغسون أن تزايد الاختراع الآلي يفرز الميل إلى الترف والدعة، ناهيك من أن العلم في سيرورة لا يعرف التوقف، وكلما تقدم العلم اشتدت المخترعات ما يحملنا إلى القول أن ترك الإنسانية لمسلك الاختراع الآلي صعب وخاصة وأنها قطعت فيه شوطا ليس بالهين. إن روح الاختراع الآلي عرف منذ القدم؛ ويذكر أن الإنسان- في ذلك الوقت- اخترع آلات وإن تميزت ببساطتها، فالاختراع الآلي ليس شرطا أن يكون موجها بدراسات نظرية، فكثيرا ما نسمع بأناس وعمال بسطاء أدخلوا تحسينات على مخترعات غابت عن أمهر المهندسين والعلماء برغم محدودية مكتسباتهم العلمية. بيد أن روح الاختراع الآلي إن فُصِل عنها العلم ضاقت آفاقها على العكس إن تدخل العلم فيها لاقت تمكنا واتساعا. (برجسون، 1971، ص327-328)

يؤكد برغسون أن التزايد في خلق حاجيات جديدة سببه الرئيسي أن روح الاختراع لم توظف بشكل عقلاني

بل وصل لحد تغليب كفة الكماليات على كفة الضروريات، ولعله الخطأ الجسيم الذي وقعت فيه الآلية أن غدت موضة تاهت في تتبع زخرف الإنتاج الكمي الكمالي. (برجسون، 1971، ص329)

لا ريب أن القرن التاسع عشر جُنّد فيه العلم لإرضاء حاجياتنا المادية؛ فأصبح لا يسمع فيه إلا عويل النزعات الآلية والعسكرية والصناعية...في مقابل ذلك تدنى صوت الروح الأخلاقية وانخفض وما أبكمه سوى إدماننا على الآليات. وقد اصطلح برغسون على هذه المعضلة التي داهمت البشرية" بالبربرية العلمية" التي صارت فيها كل آلة جديدة يستخدمها الإنسان عضوا اصطناعيا يضاف إلى أعضائه الطبيعية، فزاد جسمه تضخما دون أن تتمكن روحه من الاتساع كيما تعانق هذا الجسد الجديد. فتضخمه المادي قفز فوق قيمه الروحية، وهنا بالذات بدأت مشاكله الأخلاقية والاجتماعية والإنسانية. (Bergson, p19)

والحل لها ينبغي أن يكون بالعودة إلى الحياة البسيطة حيث يقول برغسون في هذا الصدد" وإنما ينبغي للإنسانية أن تحاول تبسيط حياتها، وأن تكون رغبتها في هذا التبسيط عنيفة عارمة كما كانت رغبتها في تعقيدها عنيفة عارمة كذلك، ولا يمكن للمبادرة أن تصدر إلا عنها، لأنها هي التي قذفت بفكر الاختراع إلى هذا الطريق، لا قوة الأشياء كما يزعمون." (برجسون، 1971، ص331)

على الإنسانية إذا أن لا تسمح للنزعة الميكانيكية أن تستحوذ عليها، فمن غير المعقول أن يستخدم العلم كسلعة يلبي الشؤو المادي فقط. ولو حصل هذا ستعيش الإنسانية التجربة الجهنمية؛ تلكم التجربة تستولي فيها الميكانيكية على الإنسان فيصبح تابعا وخادما لها، وستسقط البشرية تلقائيا بدلا من أن ترتقي لأنها لم تزرع وعيها، ولم تنظم أهدافها وأبعد من ذلك فقد خنقت مشاعرها وأوصدت أبواب أفكارها وكبحت حضارتها. هذا ما تتجرعه الإنسانية إن راهنت على القوة الوحشية (الميكانيكية) على حساب القوة الأخلاقية، ولم يكن ذلك إلا لأنها عزمت على ميكنة الروح عوض روحنة المادة. (Bergson، p20)

إن انجرارنا نحو عالم الماديات والذي من أشكاله التسلح بالآلية بأنواعها الإدارية والعسكرية والصناعية، قد قاد الإنسان إلى الانجذاب إلى حب التملك والسيطرة وهذا بدوره ولد فيه نزعة الاحتراب؛ تناحر الشعوب نحو البحث عن الدعة ولو بأرذل الطرق؛ مثلما حدث مع ألمانيا. فلا مناص من القول أننا غدونا أسرى للآلية بعد أن أصبحت القوى الأخلاقية في قبضة القوى المادية تعبث بها كلعبة في يدها، وما نتج عن هاته العبثية ويلات الحروب التي تجرعتها الشعوب؛ فقد سحق فيها عدد كبير من أطفالنا وشبابنا وقصت آمالهم، وهذا لأنها حاولت إسعاد أمة على حساب دموع و دماء أمة أخرى، فقدمت الحياة ثمنا لاستمراريتها في تجربة تعبر عن اصطدام الروح بمقاومة المادة.

غير أنه في الأفق بزغت حقيقة تصرح لنا أن الآلية بالفعل قوة تبلى، ولا ننكر أنها قاومت لفترة طويلة إلا أنها انحنت ببطء، وفجأة سيتم إنقاذ البشرية من ضيق المعاناة المادية والانحلال الخلقي، وغدا سننشد ترنيمة الخلاص منها؛ لأنه آن أن تعوض بالقوة التي لا تبلى قوة الروحانيات والقيم الإنسانية الحقة. (p21- Bergson، 22)

لكن لا نحلق بعيدا بخيالنا ونركن إلى القول أن برغسون يعيب الآلية تماما؛ لأنه في الحقيقة يرى أنها لم توظف توظيفا حكيما؛ فلا يمكن تصور مجتمعا يحيا دون الاستعانة بالآلية، خاصة وأنه قطع من الرقي التكنولوجي والعلمي ما قطع، بل مربض المشكلة يتحدد في عدم التوفيق بين النزعة الصوفية والاستغلال الآلي، أما الدليل في أن الآلية تحمل دلالة عميقة وضرورية في حياتنا؛ كون أن التصوف في ذاته يحمل على التقشف ويتطلع إلى الذيوع بفضل المحبة التي هي كينونته، لكن الحب وحده غير كاف لتحريك الصوفية؛ إذ أنه لا يطعم البشرية التي حاصرها الجوع من كل صوب. إن الخوف من شبح الجوع هو ما حمل البشرية على الاختراع الآلي وكما يقال" الحاجة أم الاختراع" فلكي ينهض الإنسان عليه الاستناد إلى الآلة، لقد نظرنا إليها نظرة سلبية ذلك لأننا ركزنا اهتمامنا على النتائج العرضية لها فجعلناها مطية للإفراط في الترف والتعمق في الدعة والإرضاء للكماليات الهامشية، في حين تغافلنا عن خصائصها الجوهرية؛ أي فيم ينبغي أن تصرف الآلية؟ و ما هو الاستغلال العقلاني لها ؟ فحتما الصوفية تستدعي الآلية. (برجسون، 1971، ص332)

ومن جهة أخرى الآلية تقتضي الصوفية فهي بحاجة إليها؛ ذلك أننا لا ننكر أن الإنسان وُهب أعضاء طبيعية استعملها كأدوات لقضاء حاجاته اليومية، ومن جملة النعم أيضا، نعمة العقل المبدع في جوهره؛ به طور الإنسان من مهاراته واخترع أدوات وآلات أقل ما يقال عنها أنها أعضاء صناعية تضاف إلى أعضائه

الطبيعية، وما الأدوات إلا تتمة لذراع العامل؛ والتي ابتكرها كامتداد لجسمه. بيد أن هذا الامتداد صار تضخما، ولم يكن بإمكان الإنسان أن يضع حاجزا له؛ فعديد من الطاقات الكمونية في الطبيعة فجّرها وصيّرها إلى طاقات متحركة، كما هو الشأن بالنسبة للفحم تراكمت مادته العضوية على مر السنين وقلبت بتدخل يد الإنسان إلى حركة. وظل هذا الجسم يتضخم بكل آلة جديدة تضاف إلى قائمة اختراعاته وانجازاته المادية، وبات من الصعب أن يفطم الإنسان نفسه من محلب الآلية، ولاسيما أن هذا التضخم والكبر المادي لم يتماشى مع جسمنا الضئيل، فحدثت مفارقة كبيرة بين النفس الإنسانية وبين الامتداد الآلي الهائل، عملت على خلق فجوة واسعة بين الطرفين وظل الإنسان يثوى في هذه العدمية تدريجيا؛ لأنه أصبح صغيرا أمام حجمها الهائل وجذبها اللامتناهي. بل أصبح عاجزا على توجيهها، فَتَمَلُّكُهَا وسيطرتها عليه باتت جلية. وهذا ما شكّل الخلفية الرئيسية لمعضلات سياسية واجتماعية عالمية كبيرة تترجم حجم الفراغ الذي خلّفه فينا البعد المادي الآلي. لكن في الحقيقة نحن اليوم أحوج إلى مورد جديد من الطاقة الكامنة تكون روحية الطبع، تسعى إلى تهذيب التضخم المادي الذي طرأ على الجسم، فتروض دوافعه المادية المتنامية وتنظم حياته وتجعلها ذات معنى لتحقق حيالها مقولة أن الآلية فعلا بحاجة إلى الصوفية. (برجسون، 1971 ص333)

فلكي تعيش الإنسانية حياة متزنة ومعتدلة لا ينبغي لها أن تهمل كلا المطلبين أو إحداهما: الآلي والصوفي.

5. خاتمة

وعلى سبيل الختم، يمكن القول أن مقاربة برغسون للظاهرة الدينية ساقته إلى تصنيف نمطين متباينين للدين: دين سكوني ودين حركي؛ فالدين السكوني منبعه الغريزة ويروم إلى التشبّث بالمجتمع من خلال الضغط والقسر الذي يمارسه المجتمع على الفرد، فلئن كان هذا النوع من الدين مذموما عند

برغسون فإن الدين الحركي هو ما جنح إليه؛ إذ استكنه أسراره وألغازه واستبصر إلى أن منبعه الحدس الصوفي ويتغيا به الفرد الاتصال بالله كتجربة روحانية محضة يعيشها بفضل المحبة الصوفية لا على أساس الضغط أو القهر وإنما بدافع الجذب الصوفي. إن التجربة الصوفية الحقة البرغسونية تجمع خيوطها نظريته في الحب ذلك أن الحب ماهو إلا علاقة الله بالإنسان. فالله خلق الإنسان لكي يحبه وبحبه هذا سيذيع تلك المحبة إلى الإنسانية جمعاء وسيقودها إلى الخلاص. الخلاص من غياهب الماديات التي ظل ثاويا فيها، لكن لن يقتدر على تحطيم هذه الأصنام والتحرر من هذه الأوهام إلا المتصوف الكبير ولم تنطبق سمات الشخص المنقذ إلا في يسوع المسيح، أما دونه فهم مقلدون – حسب برغسون – لم يبلغوا بالصوفية إلى الاكتمال كاكتمال الصوفية المسيحية مع يسوع المسيح. صوفية يمكن القول إنها مزجت بين النظر والعمل...بيد أن برغسون لا يرى بدّا في محاولة أي إنسان من الانضواء إلى الصوفية الكاملة، ومنه التشبه بالشخصية الصوفية الكبيرة (يسوع المسيح) بالخصوص في عصرنا حيث تعيش الإنسانية استلابا هائلا عكسه التعاظم المادي الآلي المقيت ونزعات الاحتراب بين الأمم والشعوب...على الصوفي الحق أن يسلك بالإنسانية لمسلك النجاة والسمو الروحي وستيسّر له الوثبة الحية ذلك؛ التوثب عن كل ما هو مادي يكبل الإنسان من التشرب بالروحانيات، لكن على الإنسانية أيضا- بالمقابل – أن تستجيب للنداء الذي أطلقه فيها؛ فإن هي فعلت حينئذ لن يهون عليه خلقها من جديد كي تفلح في الاستمرارية والاستقرارية؛ لأنه يقويها بقوته ويحمسها بحماسته ويكسبها من نبل أخلاقه وطيب سلوكه ورجاحة عقله...

إن الإغراق في الماديات والإتخام بالآليات صيّر الإنسانية تعيش حالة اغتراب فقدت بسببه كيانها الروحي؛ ذلك أن الآلة تضخم استخدامها لنشدان الدعة

والترف وحب التملك والسيطرة، مما ولد لدى الشعوب نزعات الاحتراب فتصاعدت القيم الشيئية المادية وجفّت القيم الروحية السمحة.

وما المشروع الديني الصوفي البرغسوني إلا بديل مثالي للآلية المدمرة، من خلال العودة إلى الذات الإنسانية واستشعار النورانية القابعة فيها؛ أي بمقدورنا تجاوز دهاليز الماديات ومزاليق الماكينات والتقنيات بالتجربة الصوفية التي تجمع الله بالإنسان في محبة صوفية نقية، وإن هو بلغ هذا السمو الروحي سيبثّها إلى الإنسانية قاطبة حتى تَعُمّ قيم الحب والتسامح والتلاحم... وليكن في الحسبان أن برغسون يعيب الآلية غير الموجهة توجيها عقلانيا ويطمح إلى استغلالها بحكمة وبوعي صوفي لتفادي مشاكل الحياة المتنامية؛ الأخلاقية، الاجتماعية، السياسية...

لكن هل نجح برغسون – فعلا- من إيجاد حلول مقنعة للأزمات التي تنخر بالإنسانية من خلال بسطه لنظريته الصوفية الدينية؟ وهل يكفي الحب الإلهي في تجاوز مثل هذه المشكلات؟ أم أن مشروعه يبقى مجرد تصورات يوتوبية شكلية انحيازية (الصوفية المسيحية) خاصة إن علمنا أنها تفتقر في الأساس إلى مرجعية دينية أصلية وحقيقية.

6. قائمة المراجع:

باللغة العربية:

- البحري، خالد، (2016)، *مفهوم الخلق في فلسفة برغسون*، (ط1)،كلمة للنشر والتوزيع، أريانة، تونس.
- برجسون، هنري، (1971)، *منبعا الأخلاق والدين*، ت: سامي الدروبي، عبد الله عبد الدائم، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر.
- بوحناش، نورة، (2013)، *هنري برغسون والبرغسونية*، من كتاب : الفلسفة الغربية المعاصرة– صناعة العقل الغربي من مركزية الحداثة إلى التشفير المزدوج، تأليف جماعي، ج1، (ط1)، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، الجزائر.
- حنفي، حسن، (2008)، *برجسون فيلسوف الحياة*، (ط1)، المكتب المصري للمطبوعات، المنيل-القاهرة-
- سبيلا محمد، الهرموزي نوح، (2017)، *موسوعة المفاهيم الأساسية في العلوم الإنسانية والفلسفة*، (ط1)، المركز العلمي العربي للأبحاث والدراسات الإنسانية، الرباط- المغرب.
- كريسون، أندريه، (1977)، *برغسون- حياته – فلسفته – منتخبات*- ت: نبيه صقر، (ط2)، منشورات عويدات، بيروت، باريس.
- وهبة، مراد، (1978)، *المذهب في فلسفة برجسون*، (ط2)، مكتبة الانجلو مصرية، مصر.

باللغة الأجنبية:

- Bergson, Henri, *la signification de la guerre*, Bloud et Gay Editeurs 7, place Saint- Sulpice, Paris.
- Bergson, Henri, *L'énergie spirituelle*, (20ème édition), Librairie Félix Alcan, Paris.

- Cuvillier ،Armand, (1967), *nouveau vocabulaire philosophique*, (2ème édition), librairie Armand Colin.
- Feneuil, Anthony, (2011), *Bergson Mystique et philos*ophie, (1ère édition), press Universitaire de France, paris.
- Feneuil, Anthony, (2012), Percevoir Dieu ? Henri Bergson ET William P. Alston, *Théorèmes*, 2, p2-15, [En ligne].URL : http://theoremes.revues.org/310